جوامع من أوصاف سيدنا محمد

صلى الله عليه وآله وسلم الكريمة

المشتملة على محاسن خلقه وكمال خلقه

وآدابه الخاصة والعامة

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب
(سيدنا محمد رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم)
من الصفحة ٣١١ حتى الصفحة ٣٤٦

للشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين الحسيني
بناءً على توجيهات ولده
المهندس الشيخ
محمد محيي الدين سراج الدين
رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد
WWW.SRAJALDEN.COM
قسم: كتب الإمام
تحميل كتب الإمام وتحميل أبحاث مختارة

مدير الموقع:
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

جوامع من أوصافه الكريمة ﷺ
المشتملة على محاسن خلقه ، وكمال خلقه
وآدابه الخاصة والعامة

إن مِن أجمع الأحاديث الواردة في بيان أوصاف النبي ﷺ الخَلْقية والخُلقية ، وما يتعلق بأدابه الخاصة والعامة ، ومن أوضح تلك الأحاديث المعربة عن شمائله ﷺ حديثَ هند بن أبي هالة .

روى الترمذي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قال : سألت خالي هند بن أبي هالة ـ وكان وصَّافاً ـ عن حِلْية رسول الله ﷺ ، وأنا أشتهي أن يصفَ لي منها شيئاً أتعلَّق به[1] فقال :

(كان رسول الله ﷺ فَخْماً مُفَخَّماً[2] يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلةَ

---

(١) أي : أحفظه وأتمسك به

قال العلماء : وإنما قال الحسن ذلك ، لأن النبي ﷺ توفي وهو صغير السن ، فأراد أن يستعيد إلى ذاكرته تلك الأوصاف المحمدية ويجعلها محفوظة في خزانة قلبه ، ولوح خياله .

(٢) أي : عظيماً في نفسه ، معظَّماً في الصدور والعيون عند كل من رآه ﷺ .

البدر ، أطولَ من المربوع ، وأقصرَ من المُشَذَّب [١] ، عظيمَ الهامة [٢] ، رجِلَ الشَّعر [٣] ، إذا انفرقتْ عقيقتُه فَرَقَها ، وإلا فلا [٤] ، يُجاوز شعره شحمةَ أُذُنَيه إذا هو وفَّره [٥] .

أزهرَ اللون [٦] ، واسعَ الجبين [٧] ، أَزَجَّ الحواجب [٨] ، سوابغَ في

---

(١) **الرَّبْعة** والمربوع : هو الوسط ، بين القصير والطويل على حد سواء ، **والمشذَّب** : هو الطويل البائن الطول ، والمراد : أنه ﷺ أطول من المربوع عند إمعان النظر ، وأما في بادىء النظر يُرى ربعة ، كما تقدم في حديث علي كرم الله وجهه ـ كما وضح ذلك في (جمع الوسائل) وغيره .

(٢) الهامَة : بتخفيف الميم هي:الرأس ، وعِظَم الرأس المتناسب مع الجسم : دليل قوة العقل والمدارك .

(٣) أي : في شعره ﷺ شيء من الجعودة .

(٤) المراد بالعقيقة هنا : شعر الرأس ، والمعنى : أن شعر رأسه الشريف ﷺ إن قَبِل أن يفرق بسهولة فرقه ، أي : جعل شعره نصفاً عن اليمين ، ونصفاً عن اليسار ، وإلا بأن لم ينفرق : فلا ، أي : فلا يفرق شعره بل يتركه على حاله .

(٥) أي : إذا جعل شعره وافراً وأعفاه من الفرق ﷺ .

(٦) أي : هو ﷺ أبيض اللون بياضاً نيِّراً مُشْرَباً بحمرة .

(٧) أي : واضح الجبين وممتده طولاً وعرضاً ، وهو معنى رواية : صلت الجبين ، وعظيم الجبهة .

(٨) الزَّجَج : تقوُّس في الحاجب مع طولٍ من طرفه ، ويلزم من ذلك دقة الحاجبين وسبوغهما .

غير قَرَن [1] ، بينهما عِرْق يُدِرُّه الغضب [2] .

أَقنى العِرْنين [3] ، له نورٌ يعلوه ، يحسَبه من لم يتأملْه أَشَمَّ [4] .

كَثَّ اللحية [5] ، سهلَ الخدَّين [6] ، ضليعَ الفم [7] ، مفلَّج الأسنان [8] .

---

(١) القَرَن ـ بالتحريك ـ هو : اقتران الحاجبين ، والتقاء أطرافهما ، وهو من البَلَج ، والمعنى : أن حاجبيه ﷺ لم يتصلا ببعضهما ، فهو أبلج ، وأما ما ورد في حديث أم معبد المتقدم (كان أزجَّ أقرن) فالمراد كان كذلك فيما يبدو للناظر من بعيد ومن غير تأمل ، وأما القريب المتأمِّل فيرى أنه ﷺ أبلج في الواقع .

(٢) أي : بين حاجبيه ﷺ عِرْق إذا غضب تحرك وظهر جليًّا .

(٣) قال العلامة المناوي في (شرح الشمائل): أقنى : من القنا ، وهو ارتفاع أعلى الأنف واحْديدابُ الوسط . اهـ .

(٤) أي : للعِرنين ـ وهو ما صلب من عظم الأنف ـ نورٌ يعلوه ، يحسبه من لم يتأملْه أشمَّ : من الشمم ، وهو ارتفاع قصبة الأنف ، مع استواء أعلاه وإشراف الأرنبة .

(٥) أي : عظيم اللحية ﷺ .

(٦) وفي رواية البيهقي : (أسهل الخدين) أي : غير مرتفع الخدين ، وهو أكمل وأجمل .

(٧) أي : عظيم الفم ، وليس بضيِّق الفم ، فإن سعة الفم تُعطي فصاحة في الكلام ، وبياناً لمخارج الألفاظ ، ولا شك أن جميع ذلك على تناسب كامل بين أعضاء جسمه الشريف كلِّها ﷺ .

(٨) يعني : أن أسنانه الشريفة ﷺ منتظمة ومنفرجة ، وليست متراصّة ومتضايقة فوق بعضها .

دقيقَ المَسْرُبة[1] ، كأنَّ عنقَه جِيدُ دُميةٍ في صفاء الفضة[2] .

معتدلَ الخَلْق[3] ، بادنٌ ، متماسك[4] ، سواءُ البطن والصَّدْر[5] ، عريضُ الصدر ، بعيدُ ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس[6] .

أنور المتجرَّد[7] ، موصول ما بين اللَّبَّة والسُّرَّة بشعر يجري كالخطِّ[8] ، عاري الثَّديَيْن والبطن ممَّا سوى ذلك[9] ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصَّدر[10] .

---

(١) المسرُبة : هي الشعر بين الصدر والسُّرة ، والمعنى : أن تلك المسربة هي دقيقة .

(٢) الجيد : هو العنق ، والمراد : كأن عنقه ﷺ في استوائه واعتداله وحسن هيئته وجماله ، كأنه عنق صورة ، ولكن من حيث اللون هو في صفاء الفضة وبياضها البهيج اللامع .

(٣) يعنى : أن جميع أعضاء جسمه الشريفة ﷺ خلقها الله تعالى كاملة متناسبة مع بعضها غير متنافرة .

(٤) والمعنى : أنه ﷺ ممتلىء الجسم ، ليس بالنحيل ولا بالهزيل ، وأن أعضاءه الشريفة متماسكة بقواها ، وليست متراخية .

(٥) والمعنى : أن بطنه وصدره الشريفين مستويان ، لا ينتأ أحدهما عن الآخر .

(٦) الكراديس جمع كُردوس ، وهو رأس العظام ومجمعها ، كالركبة والمنكب ونحوهما ، والمعنى : أنه ﷺ كان عظيمَ رؤوس العظام ومجامعها وقويَّها ، ويدل ذلك على كمال قواه ﷺ .

(٧) يعني : أنه ﷺ أنور العضو المتجرِّد عن الثوب وشديد بياضه .

(٨) اللبَّة : هي النُّقرة فوق الصدر ، والسُّرَّة ما بقي بعد القطع ، وأما الذي يقطع عند الولادة فهو السُّرُّ .

(٩) أي : خالي الثديين والبطن من الشعر .

(١٠) أي : كثير شعر هذه المواضع الثلاثة .

طويل الزَّندين ، رحب الراحة [١] ، شَثْن الكفين والقدمين [٢] ، سائل الأطراف أو قال : شائل الأطراف [٣] .

خُمْصان الأَخْمَصَيْنِ [٤] ، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء [٥] .

إذا زالَ زالَ قِلَعاً [٦] .

---

(١) أي : واسع الكفِّ .

(٢) أي : ضخم الكفين والقدمين ، كما جاء في رواية ، والمعنى : أنه ﷺ ممتلىء الكفين والقدمين وليس بالضعيف النحيل .

(٣) الشك من الراوي ، والمعنى : أنه ﷺ كان مرتفع الأطراف بلا احْديداب ولا انْقباض .

(٤) تثنيه أخمص ، وأخمص القدم هو الموضع الذي لا يمس الأرض عند وطئها من وسط القدم ؛ ومعنى (خُمْصان الأخمصين) : أنه ﷺ شديد تجافي الأخمصين عن الأرض ، لكن على وجهٍ لا يُخْرجه عن حدِّ الاعتدال والجمال .

(٥) أي : أملس القدمين ومستويُّهما بلا تكسُّر ، ولذلك ينبو عنهما الماء ، أي : يتباعد عنهما الماء ، يعنى أنه ﷺ إذا صَبَّ عليهما الماء مرَّ سريعاً ، لأنهما مستويتان .

(٦) يعني : أنه ﷺ إذا مشى رفع رجليه بقوة ، كأنه يقلع شيئاً ، ولا يجرُّهما على الأرض ، ولا يمشي مِشْية المختال الذي يقارب خُطاه تبختراً .

يخطو تكفِّياً[1] ويمشي هَوْناً[2] ، ذَريع المشْيَة[3] ، إذا مشى كأنما ينحطُّ من صَبَب[4] .

وإذا التفتَ التفت جميعاً[5] .

خافضَ الطَّرْف[6] ، نظرُه إلى الأرض أطولُ من نظره إلى

---

(١) يمشي مائلاً إلى سَنَن المشي ، وهو ما بين يديه .

(٢) الهَون : الرفق واللين ، والمعنى : أنه ﷺ كان إذا مشى يرفع رجليه عن الأرض بقوة ، كما دلَّ عليه قول ابن أبي هالة : (إذا زال زال قِلَعاً) وإذا وضعهما على الأرض وضعهما برفق وتُؤدة ، وهذا معنى : (يمشي هوناً) ، فهو يشير إلى كيفية وضع رجليه على الأرض ، وأنه ﷺ يمشي بسكينة ووقار ، وحلم وأناة ، دون أن يضرب برجله الأرض ، أو أن يخفق بنعله .
وقد أثنى الله تعالى على الذين يمشون هذه المشية ، ويسلكون هذه الخطّة ، فقال : ﴿وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ .

(٣) أي : واسع الخطوة خلقةً بلا تكلُّف .

(٤) أي : كأنما ينزل في موضع منحدر .

(٥) أي : لا يُسارق النظر ، ولا يلوي عنقه يمنة ولا يسرة ، كما يفعل ذلك الطائش الخفيف .

(٦) المراد بالطرف هنا : العين ، والمعنى : أنه ﷺ إذا لم ينظر إلى شيء يخفض بصره ، وهذا شأن المتأمِّل المفكِّر .

السماء [1] ، جُلُّ نظره الملاحظة [2] .

يسوق أصحابَه [3] ، ويبدرُ من لقي بالسلام [4]) .

---

(١) والمعنى : أن نظره ﷺ إلى الأرض حالَ السكوت وعدم التحدث ، أطولُ من نظره إلى السماء ، وأما في حال التحدُّث فإنه يكثر النظر إلى السماء ، وكما ورد في (سنن) أبي داود أنه ﷺ كان إذا جلس يتحدَّث ، يُكثر أن يرفع طرفه إلى السماء .

(٢) قال العلامة المناوي في (شرحه) : والمراد أن أكثر نظره ﷺ في غير أوانِ الخطابِ الملاحظةُ اهـ .

والملاحظة : هي النظر بلَحاظ العين ، وهو شِق العين مما يلي الصدغ ، وأما الذي يلي الأنف فالمُوق والماق .

(٣) والمعنى : أنه ﷺ يُقدِّم أصحابه بين يديه ويمشي خلفهم ليرعاهم ويختبر حالهم ، ويعين ضعفائهم ، وليترك ظهره للملائكة خلفه ، كما روى الدرامي بإسناد صحيح أنه ﷺ قال : «خلُّوا ظهري للملائكة» وأخرج الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال : كان أصحاب النبي ﷺ يمشون أمامه ويدَعون ظهره للملائكة ـ كذا في (جمع الوسائل) .

قال الإمام النووي : وإنما تقدَّمهم ـ أي : تقدم أصحابه في قصة جابر يوم الخندق ـ لأنه ﷺ دعاهم إليه ، فجاءوا تبعاً له ، كصاحب الطعام إذا دعا طائفةً يمشي أمامهم .

(٤) وفي رواية : (ويبدأ) والمعنى : أنه ﷺ يبادر ويسبِق من لقيه من أمته بتسليم التحيَّة .

صفات آدابه ﷺ في منطقه وسكوته

قال الحسن رضي الله عنه : فقلت : صِفْ لي منطق[1] رسول الله ﷺ .

فقال : (كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان[2] ، دائمَ الفِكرة ،

---

(١) أي : اذكرْ لي آدابه في منطقه ، وآدابه في سكوته ﷺ ، كما دلَّ عليه الجواب الآتي .

(٢) لم يكن حزنه ﷺ من أجل أمور الدنيا ، وإنما كانت تتوارد الأحزان لأسباب متعددة ، ترجع إلى دين الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى ، ولذا كانت الآيات تنزل في تسليته ﷺ وتخفيف شدة الأسى عنه :

فمن ذلك : حزنه على الذين لم يؤمنوا بما جاء به من الهدى ـ وقد تبيَّن لهم الحق ـ معاندين ومعارضين ، فكان ذلك مما يشقُّ عليه ويُحزنه ، حتى أنزل الله تعالى في ذلك قوله : ﴿لعلك باخعٌ نفسَك أن لا يكونوا مؤمنين . إنْ نشأ ننزِّل عليهم من السماء آيةً فظلَّت أعناقهم لها خاضعين﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ومن كفر فلا يَحزُنْك كفرُه ، الينا مرجِعهم فننبئهم بما عملوا . .﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿فلا تَذهبْ نفسُك عليهم حَسَرات ، إن الله عليم بما يصنعون﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ولا تحزنْ عليهم ولا تكُ في ضَيق مما يمكرون﴾ .

ومن ذلك : حزنه ﷺ بسبب خداع المنافقين وإظهارهم الإسلام ، وإبطانهم الكفر ، ومسارعتهم في الكفر ، كما قال الله تعالى : ﴿يا أيها الرسول لا يحزُنْك الذي يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم . .﴾ الآية .

ومن ذلك : حزنه ﷺ لما يقول فيه أعداؤه من الأقوال الباطلة المتناقضة ، والأكاذيب المختلفة، من أنه ﷺ ساحرٌ أو شاعر أو مجنون! وفي ذلك نزل قوله =

ليست له راحة[1] .

طويلَ السَّكْت ، لا يتكلَّم في غير حاجة[2] ، يفتتحُ الكلامَ ويختتمه باسم الله تعالى[3] ، ويتكلم بجوامع الكلم[4] ، كلامه فَصْل لا فضولَ ولا تقصير[5] .

ليس بالجافي ولا المهين[6] ، يُعَظِّمُ النعمَةَ وإنْ دقَّتْ ، لا يذمُّ منها

= تعالى : ﴿قد نعلم إنه ليحزنُك الذي يقولون﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿فلا يحزُنْك قولُهم ، إنا نعلم ما يُسِرون وما يعلنون﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ولا يحزنك قولهم ، إن العزَّة لله جميعاً﴾ الآية .

(١) والمعنى : أنه ﷺ كان دائم التفكر في أمور الأمة وما يصلح شؤونهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة ، ومن ثَمَّ ليست له راحة .

(٢) يعني : أنه ﷺ كان طويلَ الصمت ، لا يتكلم إلا في حاجة دينية أو دنيوية ، فيتحرز عن الكلام الذي لا فائدة منه ، لقوله تعالى : ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ .

وقد قال ﷺ : « من حُسْن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » رواه الترمذي .

(٣) والمعنى : أن كلامه ﷺ كان محفوفاً بذكر الله تعالى بدْأً وانتهاءً .

(٤) أي : بكلمات قليلة الحروف ، جامعة لمعانٍ كثيرة .

(٥) يعني : أن كلامه ﷺ فاصل بين الحق والباطل ، ومفصَّل لا يتداخل في بعضه ، بحيث يتلقاه السامع بوضوح دون التباس ، لا يكثر فيملّ ، ولا يقصِّر فيخلّ .

(٦) أي : ليس هو ﷺ بالجافي الغليظ الطبع ، السيء الخُلُق ، ولا بالمُهين لخلق الله تعالى ، ولا بالمَهين أي : المبتذَل الذليل ، بل هو الفخم المفخَّم الموقَّر المعظَّم ﷺ .

شيئاً ، غير أنه لم يكن يذمُّ ذواقاً ولا يمدحه [1] .

ولا تُغْضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تُعدِّي الحقُّ ، لم يُقَمْ لغضبه شيءٌ حتى ينتصر له [2] ، ولا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها .

إذا أشارَ أشارَ بكفِّه كلِّها ، وإذا تعجَّب قَلَبها [3] ، وإذا تحدَّثَ اتَّصلَ بها وضربَ براحته اليمنى بطنَ إبهامه اليسرى [4] .

---

(١) فهو ﷺ يعظِّم نعم الله تعالى الكبيرة والصغيرة ، الظاهرة والباطنة ، ولا يذم منها شيئاً ، كما وأنه ﷺ لا يذم ذواقاً ـ أي : مَذوقاً ـ من المأكولات أو المشروبات التي أباحها الله تعالى ، لأن في الذم كفرانَ النعمة ، وهو شأن المترفين المتكبرين ، كما وأنه ﷺ لا يمدح ذواقاً ، لأن ذلك شأن ذوي الشَّرَه والنهمة المذمومة .

(٢) أي : فإذا تعدَّى أحد الحقَّ وجاوزه إلى الباطل ؛ غضب ﷺ غضباً لا يقاومه شيء ، ولا يدفع غضبه شيء حتى ينتصر للحق بالحق .

(٣) والمعنى : أنه ﷺ كان إذا أشار إلى شيء : ـ إنسان أو غيره ـ ، أشار بكفه كلها ، ولا يقتصر على الإشارة ببعض الأصابع ، لأنه شأن المتكبرين والمحتقرين لغيرهم ، وإذا تعجب ﷺ من أمر ، قلب كفَّه ، كما هو شأن كل متعجب .

(٤) يعني أنه ﷺ إذا تحدَّث اتصل حديثه بكفه اليمنى ، وذلك لتأكيد الكلام وتقويته في النفوس ، وزيادةِ إيضاحه بإشارات الكف ، وضربَ براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى ، اعتناءً بذلك الحديث ، ودفعاً لما يعرض لنفس السامع من الفتور أو الغفلة عن الحديث .

وإذا غضِبَ أَعرض وأَشاح ، وإذا فرح غضَّ طرفه[1] ، جُل ضحكِه التبسُّم ، يفترُّ عن مثل حَبِّ الغَمام[2]) .

قال الحسن رضي الله عنه : فكتمتها الحسين بن علي زماناً ثم حدثتُه فوجدتُه قد سبقني إليه فسأله عما سألته عنه ، ووجدته قد سأله عن مدخله ﷺ ومخرجه ، ومجلسه وشكله ، فلم يَدَعْ منه شيئاً[3] .

آدابه ﷺ إذا دخل منزله

قال الحسين رضي الله عنه : فسألت ـ علياً رضي الله عنه ـ عن دخول رسول الله ﷺ ؟

فقال :

---

(١) أي : إذا غضب من أحد أعرض عنه ، فلا يقابله بما يقتضيه الغضب ، امتثالاً لقوله تعالى : ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ .

وأشاح : أي : بالغ في الإعراض وعدل عنه بوجهه ﷺ .

وإذا فرح ﷺ من شيء ، غضَّ طرفه ، ولا ينظر إليه نظر شره وحرص .

(٢) أي : معظم ضحكه ﷺ إنما هو التبسُّم ، ويفترُّ : أي يضحك ضحكا حسناً كاشفاً عن سنٍّ مثل حب الغمام في البياض والصفاء .

وحبُّ الغمام هو البَرَد ـ بفتحتين ـ الذي يشبه اللؤلؤ .

فكان ﷺ إذا تبسَّم بدت أسنانه الشريفة كاللؤلؤ اللامع .

(٣) قال العلامة البيجوري : فقد روى الحسن عن أخيه الحسين ما رواه الحسين عن أبيه علي ، فصار الحسن راوياً ما تقدم عن خاله هند بلا واسطة ، وما سيأتي عن أبيه عليٍّ بواسطة أخيه الحسين . اهـ .

(كان ﷺ إذا أوى إلى منزله جزَّأَ دخوله ثلاثة أجزاء : جزءاً لله [1] وجزءاً لأهله [2] وجزءاً لنفسه .

ثمَّ جزَّأَ جزأه بينه وبين الناس ، فيردُّ ذلك بالخاصَّة على العامَّة [3] ولا يدَّخر عنهم شيئاً [4] .

وكان من سيرته في جزء الأمة إيثارُ أهل الفضل بإذنه ، وقسمُه على قَدْرِ فضلهم في الدّين :

---

(١) أي : لعبادة الله تعالى بأنواع العبادات ، من صلوات وتلاوات ودعوات ، وتذكُّر وتفكُّر ، وغير ذلك .

(٢) لمؤانستهم وحسن معاشرتهم ، والقيام بمهماتهم وحاجاتهم .

(٣) يعني أن جزأه ﷺ الذي هو لنفسه ، يجعله بينه وبين الناس ، فيردُّ ذلك الجزء الذي جعله للناس ، بالخاصة على العامة ، **وخاصة الرجل** : هم قرابته الذين يختصون به ، والمقرَّبون من أصحابه وذويه . **والعامة** : من ليسوا بذلك .

وفي معنى ردّ ذلك الجزء بالخاصة على العامة أقوال :

الأول : أن الخاصة تدخل عليه في ذلك الوقت دون العامة ، فتستفيد منه ﷺ ثم تخبر العامة بما سمعت من العلوم والمعارف والفوائد .

الثاني : أن الباء بمعنى « من » أي : يردّ على العامة من جزء الخاصة .

الثالث : أن يجعل العامة مكان الخاصة ، فيرد ذلك على العامة بدلا من الخاصة .

(٤) والمعنى : أنه ﷺ لا يُخفي ولا يمنع عن الناس : عامتهم وخاصتهم ، شيئاً مما ينفعهم في دينهم ودنياهم ، بل يقدِّم جميع ذلك لهم ، في جميع أحواله ﷺ .

فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج [1] ، فيتشاغل بهم ، ويشغلهم فيما يصلحهم والأمةَ : من مسألتهم عنه ، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم ، ويقول : « ليبلغ الشاهد منكم الغائب ،

---

(١) يعني أن سيرته ﷺ في الجزء الذي جعله للأمة ، إيثارُ أهل الفضل ، وهم أهل العلم والصلاح الشرف ، فيقدِّمهم في الدخول عليه ﷺ ، والتوجهِ والإقبال ، والإفادةِ وما هنالك .

كما وأن من سيرته ﷺ في الوقت الذي جزَّأه للأمة أنه قسمه بين الأمة على قدر فضلهم في الدين من جهة الصلاح والتقوى وعلى قدر درجاتهم في الدين ، فمِن أهل الفضل ومِن بقية الناس : مَن هو ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج ، فيتشاغل بهم ، أي : يكون مشغولاً بإجابة طلباتهم وأسئلتهم ، وقضاء حاجاتهم .

كما وأنه ﷺ يُشغلهم : بضم أوله من الاشغال ، وبفتحه من : شَغَله ، كما نبه عليه العلماء الشرّاح ، والمعنى : أنه ﷺ يشغلهم فيما يُصلحهم وينفعهم ، ويصلح الأمة وينفعها ، إما : بأن يفتح لهم باب الأسئلة ، ليفيض عليهم الأجوبة ، أو يبتدئهم بالاخبار عما ينفعهم ، وبيان الذي ينبغي لهم أن يعلموه من الأحكام والمواعظ ، والنصيحة والوصية بما يُصلح شأنهم ويسعدهم في دينهم ودنياهم .

فما كان ﷺ يترك جزءاً من الزمن فارغاً عما ينفع الأمة ويصلح أمرها ، وما كان يترك أصحابه في فراغ من الوقت وبطالة من العمل ، بل كان ﷺ يشغلهم بما يصلحهم وينفعهم ، ويصلح الأمة وينفعها .

وذلك لأن الله تعالى قال له : ﴿ فإذا فرغتَ فانصبْ . وإلى ربك فارغب ﴾ . أي : فإذا فرغتَ من عمل فانصب لغيره ، وليكن القصد والرغباء في جميع ذلك إليه سبحانه .

ومن هنا يُعلم أن دين الإسلام دين جِدّ وعمل ، لا هزل فيه ولا كسل .

وأبلغوني حاجةَ من لا يستطيع إبلاغها ، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجةَ من لا يستطيع إبلاغها ، ثبَّت الله قدميه يوم القيامة » .

لا يذكر عنده إلا ذلك ، ولا يَقبل من أحد غيرَه .

يدخلون روَّاداً ، ولا يفترقون إلا عن ذَواق[1] ، ويخرجون أدلَّة) - يعني على الخير - .

سيرته وآدابه ﷺ

إذا خرج من منزله وبرز للناس

قال الحسين رضي الله عنه : فسألت أبي - علياً رضي الله عنه - عن مَخْرجه ، كيف كان يصنع فيه ؟

قال :

---

(١) الرُّواد : بضم الراء وتشديدها ، جمع رائد ، وهو الطالب ، وهو في الأصل من يتقدَّم أمام القوم ، لينظر لهم الكلأ ومساقط الغيث .
والمراد أن الناس يدخلون عليه ﷺ طالبين نفعهم في دينهم ودنياهم ، وصلاح نفوسهم ، وتعلمهم ما فيه سعادتهم ، فلا يخرجون من عنده ﷺ إلا وهم مكرَمون ظفِرون ، أكرمهم رسول الله ﷺ بمَذوق من الطعام ، ضيافة لهم ؛ وأفاض عليهم بما ينفعهم من العلوم والمعارف ، وبيان ما يحتاجونه من أمور الدنيا والآخرة ، فيخرجون من عنده ﷺ أدلَّة وهداة للناس إلى ما فيه الخير والسعادة .

كان رسول الله ﷺ يَخْزُنُ لسانَه إلَّا فيما يعنيه[1] ، ويؤلِّفهم ولا ينفِّرهم[2] ، ويُكرِم كريم كلِّ قوم ويولِّيه عليهم[3] .

---

(١) فلا يتكلم ﷺ إلا فيما يعنيه ، أي : يهمه وينفع في الدنيا أو الدين ، وقد قال ﷺ : « من حُسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » فمن حَسُنَ إسلامه اشتغل بما يعنيه ، وترك مالا يعنيه .

قال العلامة ابن رجب في شرح حديث : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » : ومعنى يعنيه : أنه تتعلَّق عنايته به ، ويكون من مقصِده ومطلوبه ، والعنايةُ : شدة الاهتمام بالشيء ، يقال : عناه يعنيه : إذا اهتم به وطلبه ، وليس المرادُ : أنه يترك مالا عناية له به ، بحكم الهوى وطلب النفس ، بل بحكم الشرع والاسلام اهـ .

وهذه غفلة كبيرة وقع فيها كثير من الناس وهو اشتغالهم بما لا يعنيهم .

وفي حديث الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : توفي رجل من أصحاب النبي ﷺ فقال رجل : أبشرْ بالجنة .

فقال ﷺ : « أوَلا تدري ؟ فلعلَّه تكلَّم فيما لا يَعنيه ، أو بخل بما لا يُنْقِصُه » قال الترمذي : حسن غريب ، وقال المنذري رواته ثقات . اهـ . وقد روى معنى هذا الحديث من وجوه متعددة كما في (الترغيب) .

(٢) فكان ﷺ يؤلِّف الناس بكريم معاشرته ، وحسن مقابلته ، ولا ينفرهم عنه بغلظة أو فظاظة ، أو كلمات مؤذية ، كما وأنه ﷺ يؤلف الناس على بعضهم ، ويحببهم في بعضهم ، ولا ينفرهم من بعضهم .

(٣) وهذا من كريم خلقه ﷺ ، وذلك أنه يكرم كريم القوم بما يناسبه من التكريم والحفاوة ، ويجعله والياً عليهم ، وأميراً مديراً لأمورهم .

وهذا من تمام حسن نظره ﷺ وحكمة تدبيره وتنظيمه وإعطائه المراتب حقها .

ويحذرُ الناسَ ويحترِسُ منهم من غير أن يطويَ عن أحدٍ منهم بِشْرَه وخُلقه [1] .

ويتفقَّدُ أصحابَه [2] ، ويسأل الناس عمَّا في الناس [3] .

ويحسِّنُ الحسن ويقوِّيه ، ويقبِّحُ القبيحَ ويوهيه [4] .

---

(١) وهذا مما يدل على عظيم عقله وسعة فكره ، وذلك أنه ﷺ كان يحذَر الناس الذين هم حديثو عهدٍ بالإسلام ، ولم يَخبُرهم ولم يجرِّبهم في مهامِّ الأمور ، ويحترس منهم ، ولكنه لا يطوي عنهم بِشْره وحسن مقابلته وطلاقة وجهه ﷺ .

(٢) يطلبهم ويسأل عنهم حال غيبتهم .

(٣) والمعنى : أنه ﷺ كان يتفقَّد أصحابه خاصَّة ، كما وأنه يبحث عن أحوال الأمة عامَّة ، فيسأل الناسَ الذين عندهم معرفة بأحوال الناس ، عمَّا في الناس من الأحوال السارة أو المكروهة ، وعمَّا في الناس من سعة وضيق ، وشدة ورخاء ، وفرح وترح ، فيفرح لفرحهم ، ويُسَرّ لما يَسُرُّهم ، ويَحزن لما يُحزنهم ، ويسعى في رفع المكاره والمساوىء عنهم .

كما وأنه يسأل عما في الناس من سيرهم في أمورهم ومعاملاتهم ، أهمْ على صلاح واستقامة ؟ أم هم على فساد واعوجاج ؟ وليس هذا من باب التجسس المنهي عنه ، ولكنه من باب التعرّف إلى الفاضل من الفضول ، والكامل من الناقص ، والاستطلاع على أمور الناس ، ليُصلح الاعوجاج ، ولتنبيه الغافل ، وتذكير الناسي ، ونصح الأمة ومعالجة أمراضها النفسية ، فيضعَ الدواء حيث الداء .

(٤) **فإذا أتى إنسان بفعل حسن** ، أو برأيٍ حسن : حسَّنه ﷺ ومدحه وقوّاه ، وقوَّى همة فاعله ونهض بعزيمته ، **وإن صدر من إنسان فعل قبيح** : ذكر ﷺ قُبح ذلك الفعل ومحاذيره ، وسوء عواقبه ، ليُباعد الناسَ من الوقوع فيه .

معتدلَ الأمرِ غيرَ مختلِف[1] ، لا يغفلُ مخافةَ أن يغفلوا أو يميلوا[2] ، لكلِّ حالٍ عنده عتاد[3] ، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه[4] .

الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده أعمُّهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة[5] .

---

(١) يعني : أن جميع أفعاله ﷺ وأقواله على غاية من الاعتدال ، محفوظ من أن يَصْدُر عنه أمور متخالفة ، أو يعارض بعضها بعضاً ، وهذا دليل على كمال عقله وإحْكام أمره ﷺ .

(٢) أي : لا يغفل ﷺ عمَّا فيه مصالح أتباعه من تذكيرهم وإرشادهم ، ونصيحتهم وتعليمهم ، مخافة أن يغفلوا فيزِلُّوا ، أو يميلوا إلى الراحة والكسل ، ويبطئوا عن العمل ، فهو ﷺ يشدُّ عزمهم ويتعهدهم بالتذكير والنصح .

(٣) لكل حال من الأحوال عنده عدة أعدَّها لتلك الحالة ، وهيَّأ لكل أمرٍ من الأمور ما يحتاجه وما تتطلبه المصلحة .

(٤) فهو ﷺ على الحق المستقيم : لا إفراط ولا تفريط ، ولا تقصير عن الحق ، ولا مجاوزة للحق ، وذلك في جميع أموره وقضاياه .

(٥) **المقربون عنده** ﷺ من الناس خيارُ الناس ، **وأفضلهم عنده أعمُّهم** نصيحة ، وأكثرهم خيراً ونفعاً للأمة في دينها ودنياها ، **وأعظمُهم عنده** منزلة أحسنُهم مواساة للناس بالنفس والمال ، **ومؤازرة** ـ أي : معاونة ـ لهم في مهمات أمورهم ، وتخفيف الأثقال عنهم ، وتنفيس كُرُباتهم ، وقضاء حوائجهم .

آدابه ﷺ في مجالسه

قال الحسين : فسألته ـ أي : علياً رضي الله عنه ـ عن مجلسه ﷺ كيف كان ؟

فقال :

كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله تعالى[1] .

ولا يوطِّن الأماكن ، وينهى عن إيطانها ، وإذا انتهى إلى قوم :

---

(١) وهذا كما قالت عائشة رضي الله عنها : (كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كلِّ أحيانه) . أي : في قيامه وقعوده وعلى جنبه ، كما قال تعالى : ﴿ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعوداً وعلى جنوبكم . . ﴾ الآية .

وروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من قعد مقعَداً لم يذكر الله فيه : كان عليه من الله تِرَةٌ ـ أي : تَبِعة وحق يطالبه الله تعالى به يوم القيامة ـ ومن اضطجع مضطجعاً لا يذكر الله فيه : كانت عليه من الله تره ، وما مشى أحد ممشىً لا يذكر الله فيه إلّا كان عليه من الله تره » .

وفي هذا كله دليلٌ على أنه ينبغي للمسلم أن يكون على ذكر الله تعالى في جميع أحواله .

جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك [1] .

يُعطي كلَّ جلسائه نصيبه ، لا يحسَبُ جليسُه أن أحداً أكرمُ عليه منه [2] .

مَنْ جالسَه أو فاوضه في حاجة : صابَرَه حتى يكونَ هو المنصرف [3] ، ومَن سأله حاجةً لم يردَّه إلا بها ، أو بميسورٍ من

---

(١) والمعنى كما قال العلامة المناوي : أنه ﷺ كان يجلس في أي مكان يلقاه ـ في المجلس ـ خالياً ، ولا يترفَّع على أصحابه لمزيد تواضعه ، ومكارم أخلاقه . اهـ .

على أن شرف المكان إنما هو بالمكين ، فالمكان الذي يجلس فيه ﷺ هو أشرف الأمكنة .

كما وأنه ﷺ كان يأمر الناس بالجلوس حيث ينتهي بهم المجلس ، إبعاداً للنفس عن الكبْر والترفُّع على بقية أهل المجلس .

قال في (جمع الوسائل) وغيره : وقد روى الطبراني والبيهقي عن شيبة بن عثمان مرفوعاً : « إذا انتهى أحدكم إلى المجلس : فإن وُسِّع له فليجلس ، وإلا فلينظر إلى أوسع مكان يراه ، فليجْلِسْ فيه » .

(٢) فكان ﷺ يُعطي كل واحد من جلسائه حظَّه اللائق به من البِشر وطلاقة الوجه ، والحفاوة والتكريم ، حتى إن جليسَه ليظنُّ أنه لا أحد أكرم على رسول الله ﷺ منه ، وذلك لما يجد من اللطف ولين الجانب .

(٣) والمعنى : أن مَن جالسَ النبي ﷺ أو فاوضه في حاجة : صبر عليه ﷺ ، بل صابره ، أي : غالَبَ جليسَه ومفاوِضَه في الصبر على المجالسة ، مهما طالت المكالمة ، ولا يعاجله ﷺ بالقيام عن المجلس أو بقطع كلامه ، ولا يُظهر له الملالَ والسآمة ، بل يستمر معه مقبلاً عليه ، حتى يكون الذي جالسه هو المنصرفَ عنه .

وفي هذا دليلُ سعةِ خُلُقه وحسن معاشرته وشدّة تحمله ﷺ .

القول [1] .

قد وسِعَ الناسَ منه بسطُهُ وخُلُقُه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق سواء [2] .

مجلسُه مجلسُ : علم [3] ، وحياء ، وصبرٍ ، وأمانة [4] ، لا ترفع فيه

---

(١) فمن سأله ﷺ حاجةً لم يرده إلا بتلك الحاجة ، أو بميسور من القول ، ولطيف من الكلام ، وذلك كوعده له بنيل تلك الحاجة ، ونحو ذلك .

(٢) قد عم الناسَ كلَّهم بِشْرُه وطلاقة وجهه ﷺ وحسن خلقه ، فصار لهم أباً : من الشفقة عليهم ، والرحمة لهم والحرص على نفعهم ، بل هو أعظم من الأب شفقةً ورحمة ، وحناناً وعطفاً ، وفضلاً ولطفاً ، لأنه صاحب مقام : ﴿ النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم . . ﴾ الآية ، كما سيأتي بعد إن شاء الله تعالى .

(٣) يعني أن مجالسَه ﷺ ومجتمعاته عامرةٌ بنور العلم الذي يُفيضه عليهم رسول الله ﷺ ، ويبثُّه فيهم ، فكان ﷺ يعلِّمهم الكتاب ـ أي القرآن ـ ويبين لهم معانيه ، ويوضح لهم أحكامه ويبرز لهم حِكمه ، ويأتي لهم بأنواع من الحكمة المشتملة على الوعظ والآداب الفاضلة ، والأخلاق الكاملة ، ويأتيهم بأنواع من قصص الأمم السابقة ، لما في ذلك من العبرة .
والبحث في مجالس رسول الله ﷺ سيأتي بعد إن شاء الله تعالى .

(٤) وهكذا مجلسه ﷺ مظلَّل بالحياء والوقار ، فكان جلساؤه معه ﷺ على غايةٍ من الحياء والأدب والسكينة .
كما وأن مجلسه ﷺ مجلس صبر على جفوة البادي ، وإلحاح السائل وإلحافه ، وإكثار السائل عما يهمه من الأمور ، كما تقدم في حديث ضِمام لما قال للنبي ﷺ : إني سائلُكَ فمشدِّد عليك في المسألة فلا تجدْ عليَّ في نفسك ، فقال له ﷺ : « سَلْ عما بدا لك . . » الحديث . =

الأصوات [1] ، ولا تُؤْبَـن فيه الحُرَم [2] . ولا تُنْثَى فَلَتَاتُه [3] .

= وكان مجلسه ﷺ مجلسَ أمانة على أسرارٍ أسرَّها الجلساء إلى بعْضِهم ، أو كان مقتضى الحال كتمانها أو خفاؤها إلى حين آخر .

(١) وذلك للوعيد الشديد الذي هدد الله تعالى به المؤمنين ، حيث قال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوقَ صوتِ النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أنْ تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ .

ولما نزلت هذه الآية الكريمة خاف الصحابة من الوقوع في هذا النهي ، فالتزموا في مجلسه ﷺ خفض الصوت ، وكثرة الصمت ، وكانوا يتواصَوْن بذلك ، ويعلّمون الجاهل ، ويذكّرون الغافل .

ففي الحديث الذي رواه الترمذي وابن حبان وغيرهما عن صفوان بن عسَّال رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البادية أتى رسول الله ﷺ ، فجعل يناديه بصوت له جهوري : يا محمد يا محمد ـ ﷺ ـ.

فقلنا : وَيْحَكَ ؛ اخفض من صوتك ، فإنك قد نُهيتَ عن هذا .

قال : لا والله حتى أُسْمِعَه .

فقال له النبي ﷺ : « هاؤم » .

فقال الرجل : أرأيت رجلاً يحبُّ قوماً ولم يلحق بهم ؟ ـ أي : يحبهم ولكن لا يستطيع أن يعمل مثلهم فهل تنفعه محبته ـ.

فقال له النبي ﷺ : « المرءُ مع مَنْ أحبَّ » .

(٢) **الأبْن** : بفتح الهمزة هو : العيب ، **والحُرَم** : جمع حرمة ، وهي : ما يحترم ولا يَحلُّ انتهاكه ، وما يحميه الرجل من الأهل ، وما يصونه ويحفظه .

والمعنى : أن مجلسه ﷺ لا تعاب فيه حرم الناس ، ولا تنتهك بقذف أو غيبة ونحوهما ، بل مجلسه ﷺ مَصونٌ عن كل قول قبيح ، وعن كل فعلٍ سيءٍ .

(٣) **الفلَتات** : جمع فلتة ، وهي : ما يبدُر من الرجل من سَقطة أو هفوة ، أو زلَّة ، ومعنى : **لا تُنْثى** أي : لا تُشاع ولا تذاع ، من قولهم : نثا الحديث : إذا حدّث به وأشاعه . =

متعادلين ، بل كانوا يتفاضلون فيه بالتقوى[1] .

متواضعين ؛ يوقِّرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ، ويُؤْثِرُون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب[2] .

سيرته ﷺ مع جلسائه وآدابه معهم

قال الحسين رضي الله عنه : وسألت أبي ـ علياً رضي الله عنه ـ عن سيرة النبي ﷺ في جلسائه ؟

= والمعنى : كما قال العلماء في شرح هذه الجملة : أنه لا فلتاتَ في مجلسه ﷺ أصلا ، فلا يصدُر من جلسائه ﷺ زلّات في مجلسه حتى تذاعَ ، بل المجلس حصينٌ بالأدب والكمال ، وعلى هذا فالنفي منصبٌّ على الفلَتات .

أو المعنى : إنْ صدرت هفوةٌ من أحد الجلساء ، فلا تذاع ولا تنقل عن المجلس ، بل ينبَّه إليها صاحبُها ، وتستر عليه فلا تعاد أصلاً .

(١) أي : متساوين بينهم ومتوافقين مع بعضهم ، فلا يتكبَّر بعضهم على بعض ، ولا يفخر أحد من الجلساء على أحد بحسَب أو نسَب ، بل كانوا يتفاضلون في مجلسه ﷺ بالتقوى ، فأيُّهم أتقى فهو الأفضل عندهم .

وفي رواية : يتعاطفون ، بدلاً من : يتفاضلون ، والمعنى كما قال العلامة الخفاجي : يعطِف بعضهم على بعض ، ويُشفق عليه ويرحمه بسبب تقوى الله ، لا رياءً ولا سُمعة ، ولا خوفاً واتقاءَ شر .

(٢) يؤثرون ذا الحاجة فيقدّمونه على أنفسهم في تقريبه من النبي ﷺ ، ليقضيَ له حاجته ، أو يجيبه عن مسألته ، كما أنهم يؤثرونه بقضائها له ، وإعانته عليها ، ولو كانوا في الحاجة مثله ، ويحفظون حق الغريب وكرامته .

فقال :

كان رسول الله ﷺ دائمَ البِشْر [١] ، سهْلَ الخُلُق [٢] ، ليِّنَ الجانب [٣] ، ليس بفظٍّ [٤] ، ولا غليظ [٥] ، ولا صَخَّاب [٦] ، ولا فَحَّاش [٧] ، ولا عيَّاب [٨] ، ولا مُشاحٍّ ـ وفي نسخة صحيحة : ولا مدّاح ، ولا مزَّاح [٩] ـ يتغافلُ عمّا لا يشتهي [١٠] .

---

(١) أي : طلاقةِ الوجه والبشاشة .

(٢) سجيَّتُه ﷺ السهولةُ وعدم الشدة في أقواله وأفعاله ، فهو ﷺ ليس بالصَّعب .

(٣) كثير اللطف ، سريع العطف .

(٤) أي : ليس هو ﷺ بسيء الخُلُق .

(٥) ليس بالجافى الطبع ، الشديد القاسي .

(٦) أي : ولا يرفع صوته بالصياح .

(٧) لا يتكلم بكلام قبيح .

(٨) أي : لا يعيب إنساناً ولا حيواناً ولا طعاماً ، كما جاء في الصحيحين أنه ﷺ ما عاب ذواقاً قطُّ ، ولا عاب طعاماً قط ، إن اشتهى أكلَه ، وإلّا تركه .

(٩) ليس بمشاح ، والمشاحة : هي المضايقة في الأشياء ، وعدم التساهل فيها ، شحّاً بها وبخلاً ، ولا مدّاح : أي : ليس مبالغاً في مدح شيء من مباحات الدنيا ، لأن ذلك يدل على شرَه النفس ، وشدة تعلقها به ، ولا كثير المزاح .

(١٠) يُظهر الغفلة والاعراض عما لا يستحسنه من الأقوال والأفعال التي تصدر من بعض الجلساء ، تلطُّفاً ورفقاً بالجلساء .

ولا يُؤيسُ منه راجيه[1] ، ولا يخيب[2] فيه .

قد تَرَكَ نفسَه من ثلاث : المراء ، والإكثار ، وما لا يعنيه[3] .

وتركَ الناسَ من ثلاث : كان لا يَذُمُّ أحداً ولا يَعيبه ، ولا يطلب عورته[4] ، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه[5] .

---

(١) أي : مَن رجاه في أمرٍ لم يقطع رجاءه ، ولم يجعله آيِساً .

(٢) إما ثلاثي مشتق من الخيبة ، وهو الحرمان ، بمعنى : أن راجيَه لا يَخيب فيما رجاه ، وإما بتشديد الياء المكسورة ، بمعنى : أنه ﷺ لا يجعل مَن رجاه محروماً فلا يخيبه .

وفي نسخة : ولا يجيب فيه : بالجيم ، من الإجابة ، والضمير في (فيه) راجع إلى مالا يشتهي ، والمعنى : أنه ﷺ لا يجيب أحداً فيما لا يشتهي ، بل يسكت عنه عفواً وتكرماً ـ كما فصّل ذلك في (جمع الوسائل) .

(٣) والمعنى : أنه ﷺ قد باعد نفسه ، فبعدت عن ثلاث : المراء والجدال كله ، إلا ما كان فيه نصرة لدين الله تعالى ، وإقامة حجة على المعاندين أو المعارضين ، فإن ذلك من الجهاد الكبير ، قال تعالى : ﴿ وجادِلْهم بالتي هي أحسن . . ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ فلا تُطعِ الكافرين وجاهِدْهم به ـ أي : بالقرآن الكريم ـ جهاداً كبيراً ﴾ .

وترك الاكثار من الكلام ، وفي نسخة مصححة : (الإكْبار) . بكسر فسكون فموحدة ، أي : ترك استعظام نفسه في الجلوس والمشي ، وأمثال ذلك في معاشرته مع الناس ، كما في (جمع الوسائل) .

(٤) العورة هي : ما يُستحيا منه أن يظهر ، والمعنى : أنه ﷺ كان لا يطلبُ الاطلاعَ على عورة أحد ، أي زلّاته وهناتِه ، ولا يظهر ما يريد الانسان ستره ، ولا يتتبع عورات الناس وذنوبهم .

(٥) فهو ﷺ طويلُ الصمت ، لا يتكلم إلا فيما يتوقع ثوابه عند الله تعالى ، لكونه مطلوباً شرعاً ، أما الكلام الذي لا ثواب فيه فهو ﷺ بمعزل عنه .

وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير[1] ، فإذا سكت تكلموا[2] .

لا يتنازعون عنده الحديث ، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرُغ[3] ، حديثُهم عنده حديثُ أوَّلهم[4] .

يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه[5] .

ويصبر للغريب على الجَفْوة في منطقه ومسألته ، حتى إنْ كان

---

(١) أي : مالوا رؤوسهم وأقبلوا بأبصارهم إلى صدورهم ، وسكتوا وسكنوا ، إجلالاً له ﷺ وأدباً معه ، فكانت صفتهم في ذلك صفة من على رأسه طائر يريد أن يَصيده ، فهو يخاف أن يتحرك فيذهب الطائر .

(٢) وهذا من كمال الأدب معه ﷺ ، وذلك أنهم لا يبتدرونه بالكلام ، ولا يتكلمون مع كلامه ﷺ .

(٣) وفي هذا أيضاً دليل على كمال أدب الصحابة رضي الله عنهم ، واهتمامهم بآداب المجلس ، وذلك أنهم لا يختصمون عنده ﷺ في الحديث ، ولا ينازع أحدهم الآخر في تناول الحديث ، فلا يتكلم اثنان معاً ، ولا يقطع بعضهم على بعضٍ كلامَه ، بل من تكلم منهم أنصتوا له حتى يفرغ من كلامه .

(٤) يعني : أن الذي يتقدم في الكلام أولاً من أهل المجلس ، هو أوَّلهم مجيئاً ، ثم وثم على الترتيب .

وقال بعضهم : معناه أن حديثهم كلَّهم أولهم وآخرهم عند النبي ﷺ ، هو كحديث أولهم في عدم الملال منه ، وفي الإصغاء التام إليه .

وقيل : معناه : حديثهم عنده ﷺ حديث أولهم ، أي : أفضلهم ديناً ، وأعظمهم تقوى .

(٥) ويفعل ذلك ﷺ تأنيساً لهم ، وجبراً لقلوبهم ، وحسنَ معاشرةٍ لهم .

أصحابُه ليستجلِبونهم [1] ، ويقول : « إذا رأيتم طالب حاجة فأرْفِدوه » [2] .

ولا يقبل الثناء إلا من مكافىءٍ [3] .

ولا يقطعُ على أحدٍ حديثَه حتى يجوز : فيقطعه بنهيٍ أو

---

(١) أي : إنه كان الصحابة ليستجلبون الغرباء ، ويرغبون في حضورهم مجلسَ النبي ﷺ ، ليستفيدوا بسبب أسئلتهم .

(٢) أي : فأعينوا صاحب الحاجة على حاجته حتى يصل إليها .

(٣) قيل : المراد لا يقبل المدح إلا من مكافىء ، أي : مقارب في مدحه ، غير مفْرط ولا مفرِّط ، أي : لا مجاوز ولا مقصِّر ، والمجاوزة للحدِّ هي ما ورد في قوله ﷺ : « لا تُطْروني كما أطرتِ النصارى عيسى بن مريم : جعلوه ابن الله ، ولكن قولوا : عبد الله ورسوله » .

وقيل : المعنى : لا يقبل الثناء عليه ﷺ إلّا من رجل يعرفُ حقيقة إسلامه من المخلصين الذين طابق لسانُهم جنانَهم ، ليس من المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، فيمدحون بالظاهر ، ويقدحون بالباطن .

وقيل : المعنى : أنه ﷺ لا يقبل المدح من أحد إلا من مكافىءٍ على إنعامٍ ناله المادحُ من رسول الله ﷺ ، فيكون مدحُه من باب المكافأة وإلا لم يقبله منه ، بل يُعرض رسول الله ﷺ عنه ، لأن الله تعالى ذمَّ من يُحبُّ أن يُحمد بما لم يفعل ، في قوله تعالى : ﴿ لا تحسبنَّ الذين يفرحون بما أتَوْا ويُحبُّون أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا . . ﴾ الآية .

وقد أورد هذه الوجوه من المعاني العلامة الشيخ علي القاري والعلامة المناوي في (شرحهما على الشمائل) ، وكذلك العلامة الخفاجي وغيره في (شرح الشفا) .

قيام [1] .

سيرته ﷺ في سكوته

وفي رواية الطبراني وغيره :

قال الحسين رضي الله عنه : فسألت أبي علياً رضي الله عنه : كيف كان سكوته ﷺ ؟

فقال :

كان سكوته على أربع : الحِلْم ، والحذَر ، والتقدير ، والتفكير .

وفي رواية : الحكم ، والحذر ، والتدبُّر ، والتفكر .

فأما تقديره ﷺ : ففي تسوية النظر ، والاستماع بين الناس .

وأما تذكُّره ـ أو قال تفكره ـ: ففيما يبقى ويفنى .

وجُمع له ﷺ الحلم والصبر [2] ، فكان لا يُغْضِبُهُ شيء ولا يستفزّه .

وجُمع له الحذَر في أربع : أَخْذُه بالحسن ، والقيام لهم فيما جَمع لهم الدنيا والآخرة . ﷺ .

---

(١) من تواضعه ﷺ وإكرامه جليسه : أنه لا يقطع على أحد كلامَه ، بل يستمع له حتى يفرغ من كلامه ، إلا أن يتجاوز حدَّ الحق الذي شرعه الله تعالى ، فيقطع عليه كلامه بنهيه عن استمراره في الكلام ، أو بقيام من المجلس .

(٢) وفي نسخة : جُمع له الحلم في الصبر ـ قال الخفاجي : أي مع الصبر على أمور الناس والأمة ، فكان ﷺ مع حلمه صابراً لا يضجر ولا يقلق . اهـ .

وفي رواية للطبراني ـ كما في (مجمع الزوائد) ـ: وجُمع له الحذر ﷺ في أربع : أخذُه بالحسن ليُقتدى به ، وتركُه القبيح ليُتناهى عنه ، واجتهاده الرأيَ فيما أصلح أمته ، والقيام فيما جَمع لهم الدنيا والآخرة [1] .

وإن كل عاقل إذا تدبَّر هذه الأوصاف الكاملة ، والأخلاقَ الفاضلة ، والخصالَ الحميدة ، والمزايا الرشيدة ، التي تأصَّلتْ في سيدِنا محمد ﷺ ، واجتمعتْ كلها فيه على أكمل وجوهِها ، وأعلى مستوياتها ـ إذا تدبَّرَ ذلك : علم يقيناً أنَّ سيدَنا محمداً الذي اتَّصفَ بتلك الصفات ، ليس هو إنساناً كغيره من بني الإنسان ، وإنما هو إنسان مخصَّص من رب العالمين ، بخصائص أكرمَه الله بها ، ومميَّز على غيره بمزايا منحه الله إياها ، وأنَّ قضيَّته إنما هو نبي الله ورسوله ، ليس ذلك من باب أدب الأدباء ، ولا من باب حكمة الحكماء ، ولا نجابة النجباء ، ولكن من باب أنه : رسول الله وخاتم الأنبياءِ ، صلوات الله عليه وعليهم وسلامه ـ آمين .

---

(١) يعني أنه ﷺ كان يبذُل جهده فيما يُصلح الأمة ، ويجمع لهم خير الدنيا والآخرة وسعادتهما .

وهذا الحديث ـ كما قال العلامة الزَّبيدي في (شرح الإحياء) ـ: أخرجه الترمذي في (الشمائل) ، والبغوي ، والطبراني ، والبيهقي في (الدلائل) من طرق ـ قال : وأخرجه ابن منده . اهـ .

وقد أورده الحافظ الذهبي في (تاريخ الإسلام) بروايات ، والحافظ ابن كثير في (البداية) أيضاً معزواً للطبراني وغيره .

من آدابه العامة ﷺ

وقاره العظيم ﷺ

كان رسول الله ﷺ أشدَّ الناس وقاراً ، وأعظمهم أدباً ، وأرفعَهم فخامةً وكرامةً .

روى أبو داود في (مراسيله) عن خارجةَ بن زيد الأنصاري رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ أوقرَ الناس في مجلسه ، لا يكاد يُخرج شيئاً من أطرافه .

قال كثير من العلماء : يعني أنه ﷺ لا يُظهر شيئاً من أطراف جسمه الشريف ، وقاراً منه .

وقال العلامة القاري في معنى : لا يكاد يُخرج شيئاً من أطرافه : أي : من بُزاقِ فمه ، أو مخاط أنفه ، أو قطع ظفره . اهـ .

وروى ابن ماجه عن إسماعيل قال : دخلنا على الحسن ـ أي : البصري ـ نعوده حتى ملأنا البيت ، فقبض رجليه ثم قال : دخلنا على أبي هريرة نعوده حتى ملأنا البيت ، فقبض رجليه ثم قال ـ أبو هريرة ـ : دخلنا على رسول الله ﷺ حتى ملأنا البيت وهو ﷺ مضطجع لجنبه ، فلما رآنا قبض رجليه ثم قال : « إنه سيأتيكم أقوام من بعدي يطلبون

العلم ، فرحِّبوا بهم وحيُّوهم وعلِّموهم »[1] .

تقديمه ﷺ كبير القوم في الكلام

كان رسول الله ﷺ يقدّم كبير القوم في الكلام والسؤال ، وذلك من باب التكريم وحفظ المراتب وتنزيله الناسَ منازلهم :

روى البخاري عن سهل بن أبي حَثْمة أن نفراً انطلقوا إلى النبي ﷺ - وفي رواية : جاء عبد الرحمن بن سهل وحُويِّصة ومحيِّصة ابنا مسعود إلى النبي ﷺ - فقالوا : يا رسول الله انطلقنا إلى خيبر ، فوجدنا أحدنا قتيلاً - وفي رواية : فبدأ عبد الرحمن يتكلم ، وكان أصغرَ القوم .

فقال ﷺ : « كبِّر الكِبرَ » .

وفي رواية : « يبدأ الأكبر » .

وفي رواية : « الكبرَ الكبرَ »[2] .

وفي رواية : « كبِّرْ كبِّرْ »[3] يريد السنَّ . . . الحديث في باب القَسامة .

والمعنى قدِّم للكلام من هو أكبر منك سنّاً ليعرِض القضية .

---

(١) انظر مقدمة (سنن) ابن ماجه في فضل العلم وقال في (الزوائد) : إسناده ضعيف .

(٢) بالنصب على الإغراء ، كما في (الفتح) ، أي قدموا الأكبر .

(٣) بتكرار الأمر .

وفي (مسند) أحمد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال :

« ليس منا من لم يوقِّر الكبير ، ويرحمِ الصغير ، ويأمرْ بالمعروف وينهَ عن المنكر » .

تكريمه ﷺ أهل الفضل

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « البركة مع أكابركم [1] » .

وفي رواية البزار : « الخير مع أكابركم » .

والمعنى : أن البركة مع أكابركم في الدين والعلم .

كما دل عليه حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ليس من أمتي من لم يُجلَّ كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقَّه » [2] .

فمن ذلك : إكرامُه ﷺ لعمه العباس رضي الله عنه ومباهاتُه به ،

---

(١) عزاه في (الجامع الصغير) إلى ابن حبان قال : وصححه ابن حبان ، و (الحلية) والبيهقي والحاكم في (المستدرك) وقال : صحيح على شرط مسلم كما في (الترغيب) من كتاب الأدب ، ورواه البزار والطبراني وفي إسناد البزار حماد ، وثقه جماعة ، وفيه ضعف ، وبقية رجاله رجال الصحيح . اهـ .

(٢) قال في (مجمع الزوائد) : رواه أحمد والطبراني وإسناده حسن .

وإعلانه ﷺ ذلك أمام الصحابة ، ليقتدوا به في تكريم عمه العباس رضي الله عنه :

روى الطبراني بسند حسن عن ابن عباس ، عن أمه أم الفضل ، أن العباس أتى النبي ﷺ ، فلما رآه قام إليه وقبَّل ما بين عينيه ، ثم أقعده عن يمينه ﷺ ، ثم قال : « هذا عمي ، فمن شاء فلْيُباهِ بعمه » .

فقال العباس : نِعم القولُ يا رسول الله . . الحديث .

وروى الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : استسقى عمر عام الرَّمادة ـ أي : عام القحط ـ بالعباس فقال : (اللهم هذا عمُّ نبيك ، نتَوجَّه إليك به ، فاسْقِنا) .

فما بَرِحوا حتى سُقوا .

فخطب عمر فقال : (يا أيها الناس ، إن رسول الله ﷺ كان يرى للعباس ما يرى الولد لوالده : يعظِّمه ، ويفخِّمه ، ويبرُّ قَسَمه ، فاقتدوا برسول الله ﷺ في عمه العباس واتَّخذوه وسيلةً إلى الله فيما نزل بكم) .

وبعض هذا الحديث في صحيح البخاري .

وكان الصحابة رضي الله عنهم يعظمون العباس ويكرمونه ، اتّباعاً للنبي ﷺ :

فقد روى الحافظ ابن عبد البر عن ابن شهاب أنه قال : كان الصحابة يعرفون للعباس فضله ، فيقدِّمونه ويشاورونه ، ويأخذون برأيه .

وروى أيضاً عن أبي الزِّناد أنه قال : لم يمرَّ العباس بعمر وعثمان وهما راكبان ، إلا نزلا عن دابَّتهما ، حتى يجوزَ العباس ، إجلالاً له ويقولان : عم رسول الله ﷺ .

ومن لطائف أدب العباس مع النبي ﷺ :

ما رواه ابن أبي عاصم عن أبي رَزين ، والبغوي في (معجمه) عن ابن عمر ، أنه قيل للعباس : أنت أكبرُ أو النبي ﷺ ؟

فقال : هو أكبرُ مني ، وأنا وُلدتُ قبله .

انظر (الإصابة) وشرح الزرقاني على (المواهب) .

وفي (الإصابة) نقلاً عن الشعبي أنه قال : ذهب زيد بن ثابت رضي الله عنه ليركب ، فأمسك ابن عباس رضي الله عنهما بالركاب .

فقال : تنحَّ يا ابنَ عمِّ رسول الله ﷺ .

قال : لا ، هكذا نفعل بالعلماء والكبراء[1] .

وروى الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح في نفرٍ من أصحابه ، إذ أُتي بقدَح فيه شراب .

فناوله رسول الله ﷺ أبا عبيدة ، فقال أبو عبيدة : أنت أولى به يا نبي الله .

---

(١) قال في (مجمع الزوائد) ٩ : ٣٤٥ : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير رزين الرماني وهو ثقة . اهـ .

قال : « خُذْ » فأخذ أبو عبيدة القدح ، وقال قبل أن يشرب : خذ يا نبي الله .

فقال ﷺ : « اشرب فإنَّ البركة مع أكابرنا ، فمن لم يرحم صغيرنا ، ويجلَّ كبيرنا : فليس منَّا »[1] .

فأراد ﷺ أن يكرم أبا عبيدة فناوله القدح ، وأثنى عليه بقوله : « البركة مع أكابرنا » .

وروى أبو داود عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن من إجلال الله : إكرامَ ذي الشيبة المسلم ، وحاملِ القرآن غيرِ الغالي فيه ولا الجافي عنه ، وإكرامَ ذي السلطان المُقْسِطِ » .

تحسينه ﷺ الحسن
وتنشيطه على إتقان العمل وحسنه

كان رسول الله ﷺ يُحسِّن الأمر الحسن ويمدح على ذلك ؛ تكريماً لمن أحسن فيه ؛ وتنشيطاً لهمته ، ويُقبِّح الأمر القبيح ويردُّه .

روى الإمام أحمد عن يحيى بن الجزار قال : دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها فقالوا : يا أم المؤمنين حدِّثينا عن سرِّ رسول الله ﷺ .

---

(١) قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف . اهـ من كتاب الأدب .

قالت : (كان سرُّه وعلانيته سواءً ، ثم ندمتْ قالتْ : أفشيتُ سرَّ رسول الله ﷺ

قالت : فلما دخل رسول الله ﷺ أخبرتُه ، فقال : « أحسنتِ ») .

قال في (مجمع الزوائد) : رواه أحمد والطبراني وقال : يحيى عن أم سلمة ، ورجالهما رجال الصحيح اهـ .

وروى ابن حبان في (صحيحه) عن طَلْق بن علي الحنفي ـ نسبة لبني حنيفة ـ قال : بنيتُ المسجدَ مع رسول الله ﷺ فأخذتُ المِسْحاة بمِخْلَطة الطين ، فكأنه أعجبه فقال : « دعوا الحنفي والطينَ ، فإنه أضبطُكم للطين » .

وفي (طبقات) ابن سعد عن طلق قال : قدمتُ على النبي ﷺ وهو يبني مسجده ، والمسلمون يعملون فيه معه ، وكنتُ صاحبَ علاجٍ وخلطِ طينٍ ، فأخذتُ المِسْحاة أخلط الطين ـ ورسول الله ﷺ ينظر إلي ، ويقول : « إن هذا الحنفيَّ لصاحبُ طين »[1] .

وكان ﷺ يحثُّ على إتقان العمل وإحسانه :

فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى يحبُّ إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتْقنه »[2] .

---

(١) كذا في (التراتيب) .

(٢) ذكره في (الجامع الصغير) معزواً للبيهقي ، وقال العلامة المناوي : ورواه أبو يعلى وابن عساكر وغيرهما .

وروى البيهقي عن كُليب بن شهاب أن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى يُحبّ من العامل إذا عمل أن يُحسن »[1] .

(١) كذا في (الجامع الصغير) رامزاً لضعفه .